أمثلة من الترجمة

Christoph Hein
Glückskind mit Vater

Suhrkamp Verlag, Berlin 2016
ISBN 978-3-518-42517-6

صفحات **40–47 & 85–88 & 285–289**

Christoph Hein

الابن المحظوظ ووالده

ترجمة: يسرا علي

© 2016 Suhrkamp Verlag, Berlin / Arabic Translation: © 2016 Litrix.de

صفحات 40-47

كان الطقس في اليوم السادس من بدء السلام باردًا.

كان قارس البرودة، كما أخبرتني أمي بعدها بسنوات قائلة: كنت سعيدة بأن اقتراب موعد ولادتك يعطيني سببًا وجيهًا كيلا اضطر للخروج من البيت، ولأستدعي القابلة إلي في المقابل.

كان مبنى البلدية قد أصبح منذ ثلاثة أسابيع مقرًا للإدارة العسكرية السوفيتية المسؤولة عن المقاطعة، ويقف على البسطة العلوية لدَرَج المدخل الضخم جندي مسلح برشاش. وكان جنودهم يجلبون مواطنين من مدينتنا بمعدل كل ساعة تقريبًا إلى مقر المبنى. وكان معظم من يأخذونهم من الرجال من مختلف الأعمار. وكان الذين يعودون منهم لا يتكلمون إلا قليلًا عما يحدث لهم هناك وعما يتم سؤالهم واستجوابهم، وكيف استطاعوا أن ينجوا سالمين بدلاً من أن يختفوا في مكان ما كما حدث لبعض الآخرين. وكانت الناس تُكِن احترامًا لسلطة الاحتلال الأجنبية وتخشاها. ولكن ما كان يشغل الناس أكثر من ذلك بكثير هو التغلب على الحياة اليومية، وتدبير المواد الغذائية أو مبادلتها، وجمع الأخشاب لتكون وقودًا لفرن المطبخ، وإصلاح الأضرار التي لحقت بالمنزل وبغرف التخزين، واقتلاع الأعشاب المزهرة من حديقة المنزل الخلفية والأمامية لزراعة البطاطس والجزر.

في ساحة السوق وأمام دار البلدية وبجوار الكنيسة كانت هناك طرمبتا مياه عامة، عبارة عن هياكل قديمة جدًا من الحديد مصبوب لها أذرع عملاقة يجب الضغط عليها لأسفل بكل قوة عدة مرات قبل أن تنساب المياه منها أخيرًا. فلم يكن هناك أية مياه في المدينة لمدة أسبوع كامل. وكان على كل فرد أن يقف في طابور أمام إحدى هاتين الطرمبتين يوميًا حاملاً السطول والأباريق. وعلى الرغم من أن المياه عادت لتنساب مرة أخرى في المواسير المنزلية بأسرع مما كان متوقعًا لها، إلا أن الطوابير استمرت أمام الطرمبتين، لأن المواسير الموصلة لبعض المنازل تدمرت بفِعل القنابل والذخائر التي لم تنفجر بالكامل، وكان الأمر يتطلب ما قد يصل لأسابيع حتى يتم إصلاح هذه التوصيلات. ومن المُلفت أن الطرمبة الكائنة خلف الكنيسة كانت هي فقط التي يتزاحم حولها الناس بكثافة، وأن عندها فقط كانت تنشأ أحيانا بعض المشاجرات ويتصارع فيها الناس فيما بينهم بالسطول المعدنية لكي يقفوا في أماكن أفضل. أما الطرمبة الكائنة أمام مبنى البلدية فلم يكن يقف أمامها إلا القليل ولا تندلع عندها أية مشاجرات على الإطلاق. فالإدارة العسكرية استطاعت من مكاتبها ومن خلال الجنود المسلحين الذين يتحركون ذهابًا وإيابًا أمام مبنى البلدية بوجوههم التي يغلب عليها السحنة المنغولية والتي لا تبدو عليها أية انفعالات، أن تجعل الناس يحتاطون لئلا يلفتوا الانتباه في هذا المكان، أو أن يتجنبوه بقدر الإمكان. لذا لم يكن إلا كبار السن من الرجال والنساء هم من يمكن أن تراهم هناك. فقط الطاعنون في السن جدًا من الرجال والنساء. وكان هؤلاء يتخَفّون بملابس بالية تبدوا وكأنهم قد ارتدوها خصيصًا لكي يمروا أمام ساحة مبنى البلدية، ولكي لا يلفتوا الأنظار إليهم على الإطلاق. أما السيدات الصغيرات في السن فقد كن يمكثن في بيوتهن، وكن لا يَدَعن أحدًا يراهن في الشارع في النهار ولا في الليل بطبيعة الحال، خصوصًا وأنه كان هناك ساعة محددة يبدأ فيها حذر التجول، وكان كل فرد يراعيها بدقة. أما الشباب فقد كانوا يتجنبون أن تقع أعين جنود الاحتلال عليهم. فقد انتشرت بكثرة شديدة شائعات تقول إن هذا أو ذاك قد اختفى قسريًا، وأن آخرين

© 2016 Litrix.de

قد تم نهب بيوتهم، وأن بعضهم، وبخاصة السيدات الصغيرات في السن قد حدث لهن ما هو أسوأ من كل ذلك بكثير.

كانت أمي تتحدث عن هذه الأمور بشكل غامض جدًا. وكنت عندما أسألها، تجيبني بأن كل شيء كان سيئًا بما فيه الكفاية، وأن أحدًا لا يرغب في تذكّر شيءٍ منه. وكانت تقول: كان الكل خائفًا آنذاك ويخشى مما هو آتٍ. ولم يختلف الأمر حتى عندما استسلمت ألمانيا. فالروس كانوا يعاملوننا بعد الثامن من شهر مايو، كما كانوا يعاملوننا في الإسبوعين اللذين سبقا هذا التاريخ. كنا بالنسبة لهم أعداء، وكانوا هم أعداء لنا. ولم يكن يثق أي طرف في الآخر حتى في أبسط الأمور. فالروس كانوا يخشون من الهجمات التي كان يشنها ضدهم المجانين من أتباع النازيين، من منظمة المستذئبين الـ"ويرولف"، وهي منظمة كوّنها شبيبة هتلر المتطرفون، وأسسها منذ عام جبهارد هيملر، أخو ذلك الصديق الذي كان والدك مولعًا به. واستمرت المنظمة في محاربة جيوش الحلفاء المنتصرة حتى بعد الاستسلام. وإنني أعتقد، أن كل ألماني كان بالنسبة للجنود الروس والجيش الأحمر بمثابة هتلر، بحسب تعبير ذلك الضابط الروسي الشاب.

صحيح أننا كنا نحمد الله على نجاتنا من الحرب، إلا أن أحدًا لم يكن يعرف إلامَ ستؤول إليه الأمور من بعد ذلك، ومن سيتحكم في مصير البلد ويحكم المدينة، وماذا سيحدث للسكان، وما هي العقوبات التي سيفرضها الروس عليهم كقوة احتلال. وقد بدا كما لو أن الكل قد أراد أن يتفوق على نفسه في طرح التخمينات المرعبة ونشر المخاوف الشديدة.

مع نهاية الحرب كانت أمي في فترة حملها الأخيرة. وقد حددت لها القابلة موعد الولادة مع نهاية شهر مايو، إلا أنها أردفت قائلة بأنه في أوقات الحروب لا يعتد بهذه الحسابات كثيرًا، وذلك لأنه مع انفجار قنبلة في مكان ما بالمدينة أو مع سماع دوي طلقات المدفعية قد يبدأ طلق المخاض فجأة. ولذلك كان يتعين على والدتي أن تكون مستعدة دائمًا لكل شيء. في ذلك الوقت كان والداي يسكنان في ساحة السوق في أحد أجمل بيوت المدينة، وكان البيت ڤيلا حقيقية مكونة من طابقين ولها واجهة فخمة. لقد رأيت البيت بنفسي لاحقًا من الخارج فقط، فأنا لم أطأه قط، ولكنني كنت أسمع قصصًا كثيرة عنه في طفولتي.

في الثاني من شهر مايو أتى ضابط روسي بصحبة اثنين من الجنود إلى المنزل. ويبدو أن الضابط كان لا يزال صغيرًا في السن، غالبًا في منتصف العشرينات، وكان قصير القامة قوي البنية، ذا عينين بالكاد يمكن رؤيتهما، إذ كانتا لا أكثر من شقين دقيقين. وكان يتحدث الألمانية، وإن كان يتكلمها بطريقة ركيكة ويخرج صدى ألفاظه من الحلق، ولكنها كانت مفهومة. أعلن الضابط بصوت عالٍ وبلهجة آمرة ومسيطرة أنه قد تمت مصادرة الڤيلا. وأمر بإخلائها فورًا. وظل يكرر عدة مرات أن هذا الإخلاء يجب أن يتم في غضون ساعتين رافعًا إصبعين من أصابعه عاليًا، حتى يكون كلامه واضحًا. إلا أن الضابط ارتبك واحمر وجهه مثل التلميذ الصغير، عندما قامت مديرة منزلنا بإحضار أمي من غرفتها ورآها وهي في فترة حملها الأخيرة هذه. وتوقف إثر ذلك عن الصياح بذلك الشكل، حتى أنه اعتذر عن المصادرة التي لا يمكن الرجوع عنها. ثم رجا والدتي أن تخلي البيت في خلال يومين، وأن هذا هو أقصى ما يمكن أن يقدمه من جهته، حيث لا يمكن تقديم ما هو أكثر من ذلك لسيدة ألمانية مثلها. وعندما أجهشت والدتي بالبكاء واحتضنت بيديها الاثنتين بطنها المكوّر، استدار الضابط ناحية جنوده وتحدث معهم باللغة الروسية ثم أسرع الجنود بعدها بالخروج من البيت. واستدار الضابط مرة أخرى باتجاه والدتي وقال لها

بأدب جم بأنه سيهتم شخصيًا بأمرها، ولن يتركها للشارع. ثم سألها عن أسرتها، فقالت أمي إن لها طفلًا يبلغ من العمر عامين، وزوجًا لم يعد بعد من الحرب، ويسكن معها بالبيت أربعة أشخاص آخرون، من الخدم. وعندما لاحظت والدتي أن الضابط لم يفهم كلمة خدم، أضافت أن هؤلاء الأشخاص من العائلة، وأنهم يسكنون معهم منذ أعوام وعليها رعايتهم. فحدق الظابط فيها مرتابًا أو متفاجئًا بما قالته. وطلب منها أن يمشي شخص من الأسرة بصحبته ليريه البيت بكل غرفه. عرضت والدتي عليه أن تقوم هي بنفسها بالتجول معه في البيت، إلا أنه رفض ذلك. وقال: لا. ثم أردف قائلًا: أحد الخدم من فضلك. فقام الجنائني بالتجول معه في البيت ببطء شديد جدًا، كما حكى الجنائني بعد ذلك، وكان ذلك لأن الضابط الروسي كان يدون ملاحظات في كل حجرة، وربما قام بتدوين كل قطع الأثاث الموجودة في كل حجرة، لأن كل المنقولات لابد وأن تبقى بالمنزل، حسبما شرح لمديرة المنزل بعد وصوله مباشرة، وأن أخذ أي شيء من هذه المنقولات يُعَد من قبيل السرقة من الملكية العسكرية ويعاقب عليها تبعًا لذلك. ذهبت والدتي ومديرة المنزل والخادمتان الأخريتان إلى حجراتهن وانخرطن في البكاء لفترة طويلة، ثم بدأن وهن دامعات في البحث عن أشيائهن التي سيأخذونها معهن، وتعبئة الحقيبتين الوحيدتين المسموح بهما لكل شخص وتعبئة الصرر بالأغطية. واستعانت والدتي في ذلك الأمر بيولي، أكبر الخادمات سنًا.

قبل ظهر اليوم التالي أتى إليهم الضابط الروسي مرة ثانية. وجاء بمفرده لكي يخبر أمي أنه قد أخلى لها ولطفلها مسكنًا مكونًا من مطبخ وحجرة صغيرة في شارع بِرْجشتراسِه. ورجاها وطالبها بأن تخلي الڤيلا اليوم، فهو لا يستطيع أن ينتظر. وقال أنه سيعود مجددًا في الساعة الثالثة بعد الظهر لمراجعة ما أخذته هي والخدم معهم من البيت، الذي أصبح من الآن فصاعدًا ملكًا للإدارة العسكرية السوفيتية. وعندما سألته والدتي، أين سيسكن باقي أعضاء الأسرة، نظر إليها الضابط نظرة عابسة وحسب، وقال مجددًا إنه سيأتي في الساعة الثالثة، ثم خرج من البيت صامتًا.

لم يعد الضابط الشاب مرة أخرى إلا في حوالي الساعة السادسة. وكانت والدتي تنتظره بالڤيلا بصحبة مديرة المنزل والخادمتين والجنائني. كانوا متحيرين ومرتبكين، إلا أنهم لم يجرؤوا على مغادرة المنزل بمفردهم وضد أوامر الروسي وبخاصة أن أيًا منهم باستثناء الجنائني لم يكن يدري أين سيقيم.

لم يذكر الضابط شيئًا عن سبب تأخره. فقد جاء ومعه أربعة جنود ولم يبادر أمي بالتحية، بل حدّق فيها مليًا دون أن ينبس ببنت شفة. وعندما سألته أمي إن كان في مقدورها أن تقدم له شيئا، كوبًا من الشاي أو كوبًا من الماء، واصل صمته. حكت أمي أن نظرته كانت مليئة باحتقار شديد، لدرجة أن جسدها كان يرتعد وبدأت في توقع أسوأ ما يمكن أن يحدث. ثم حاولت أن تلطف من هذا الجو غير المريح فبدأت تتحدث عن الڤيلا وعن الأعمال التي يتعين انجازها بشكل عاجل في السطح، وللأسف لابد من إصلاح السقف المقوّس للقبو القديم في العديد من المواضع. قابل الشاب الروسي كلامها بصمت، وبعد وقت بدا لها بلا نهاية، قال فقط: جرهارد مولر. أنت زوجة جرهارد مولر.

أيدت أمي ما قاله الضابط الروسي. فسألها: هل تعرفين زوجك، هذا المدعو جرهارد مولر؟ بدا لها السؤال غريبًا فأومأت برأسها فقط. فاستطرد قائلاً: هل تعرفينه حقًا؟ هل تعلمين ما فعله هذا في بلدي وفي بولندا؟

أخبرته والدتي بأنه لم يحكِ لها قط ما يحدث في الجبهة. ففي الخمس سنوات الماضية كان نادرًا ما يتواجد بالمنزل، فقط مرة كل نصف عام، وكان يمكث فقط لبضعة أيام. وفي هذه الأيام كان لا يهتم سوى بالمصنع وكان يقضي مع مدير مصنعه الذي عينه وقتًا أطول بكثير مما يقضيه معها. أما عن الجبهة وعما كان يتعين عليه فعله هناك، فإنه لم يحدثها قط عن ذلك. وقالت إنها في الشهور الأخيرة لم تعد تسمع عنه شيئًا على الإطلاق، وإنها لا تعلم إن كان لايزال حيًا أم أنه وقع في الأسر.

وهنا سألها الضابط وهو يشير إلى بطنها: وهذا الطفل، هل هو منه؟ وعندما أومأت أمي برأسها قال لها: إن زوجك جرهار مولر ليس أسير حرب كما تعتقدين، أو ربما كما تريدين أن توْهِميني. إننا نبحث عن جرهارد مولر هذا، لكي يمثل أمام المحكمة العسكرية. زوجك مجرم. إنه مجرم حرب. بل إنه واحد من أكبر مجرمي الحرب. والآن أرينى ماذا ستأخذين معك من هذا المنزل، أنتِ والخدم. وبعد ذلك غادرى المكان. وعليك أن تبحثي بنفسك عن مكان لتقيمين فيه، فالمسكن الذي أمرت بمصادرته لك قد تمت إعادته لساكنيه، فأنا لايمكن أن أدبر مسكنًا لزوجة جرهارد مولر.

لم يجب الضابط عن أى من الأمور التى كانت أمي تود أن تعرفها منه بعد ذلك. بل ازدادت نبرة العنف في صوته بشكل مستمر وهو يطالب أمى وسكان المنزل الآخرين بفتح حقائبهم. وبكلمة واحدة أمر الجنود المصاحبين له بتفتيش الحقائب. استخرج الجنود من حقائب أمى ومن حقائب رئيسة الخدم خطابات في ربطتين صغيرتين، إحداها ملفوفة برباط مطاطي والربطة الآخرى، التي تخص رئيسة الخدم، كانت موضوعة في علبة شوكولاتة فارغة. وبحركة من رأسه أمر الضابط الجنود بوضع تلك الخطابات على الطاولة. وعندما سألته أمى عن السبب قائلة إن تلك الخطابات شخصية، أجابها بشكل مقتضب بأنه لا يُسمَح بخروج أى مكاتبات سواء كانت ملفات، أو أوراق، أو خطابات من هذا المنزل. ما يُسمَح بخروجه فقط هي المستندات الشخصية، أي جواز السفر. ثم حرك يده نحو الباب مشيرًا لهم بالمغادرة.

حمل الجنائني حقائب أمي وصُرر الأغطية إلى خارج المنزل ووضعهم على عربة الجر الخشبية التي أوقفها احتسابًا لأية ظروف أمام المدخل المنفصل المؤدي إلى قبو تخزين الفحم، ثم عاد إلى المنزل ليحضر أغراضه الشخصية، فى الوقت الذى ذهبت فيه أمي إلى طفلها ذي العامين لتحمله على يدها من غرفة الأطفال وتغادر المنزل، الذى سكنته منذ أن تزوجت ولن تدخله في حياتها من بعد ذلك أبدًا.

وقالت لي أمي: إذا كان قد سُمح لي بالخروج، فإن الفضل في ذلك كله يرجع إليك أنت وحدك. إنني مدينة لك أنت بحياتى. فأنت كنت بمثابة جالب الحظ بالنسبة لي يا بنى، فحملي بك وفي آخر أيام الحمل جعل الضابط الروسي لا يجرؤ على أن يأمر باحتجازي. في وضع آخر كانوا بكل تأكيد سيقبضون علي. وأنا لا أجرؤ حتى على التفكير فيما كان من الممكن أن يحل بي بعد ذلك.

نزلت والدتي عند ميشتهيلد الأخت الأكبر لزوجها. وكانت ميشتهيلد تسكن فى منزلها، الذي لا تستطيع أن تستخدم منه إلا غرف الدور الأرضي. فقد كان بعض اللاجئين من منطقة سيليزيا يعيشون منذ ثمانية أسابيع في الطابق الأول والثانى. وقد كان على ميشتهيلد أن تُسكنهم في بيتها بناءً على الأوامر الصادرة من إدارة المدينة. كان المساء قد حل عندما وصلت أمي إلى بيت أخت زوجها وحكت لها عن مصادرة منزلها وإجلائها منه، ورجتها أن توفر لها غرفة. لم تعانق ميشتهيلد والدتي عندما جاءت إليها ولم تمد يدها إليها بالتحية. فقد كانت السيدتان تكنان لبعضهما البعض شعوراً بالنفور المتبادل منذ ذلك اليوم الذي تعارفا فيه لأول مرة، وذلك من الوهلة الأولى.

صفحات 80-85

في العام المدرسي الأخير، في الفصل الرابع، جاء ثلاثة رجال إلى مدرستنا وقاموا بمراقبتنا في حصة الرياضة لمدة يومين ثم وجهوا لي دعوة لحضور تدريب خاص في مدينة لايبزيج على أن تقوم الدولة بتحمل كل النفقات والإقامة لمدة أسبوع. وسمحت إدارة المدرسة بإعفائي من حضور الفصول المدرسية طيلة ذلك الأسبوع. وقامت حافلة صغيرة بأخذي من البيت بعد ظهيرة يوم أحد، وذهبوا بي مع ستة أطفال آخرين في العاشرة من عمرهم مثلي كانوا يسكنون في مدن مجاورة لمدينتي إلى المدرسة الداخلية التابعة للمدرسة الرياضية في لايبزيج. وهناك قاموا بتدريسنا لمدة أسبوع كامل وأضافوا لجدول الحصص المعتاد أربع ساعات يومياً للتدريب الرياضي. وقد كان هذا كما قال المدربون عبارة عن اختبار لنا، علينا أن نبين من خلاله ماذا نستطيع فعله وما تحمله ذواتنا من قدرات، وأن من سينجح في هذا الاختبار سيتابع تعليمه في مدرسة الرياضة حتى الثانوية العامة، ليصير بطل رياضي. وبالنسبة لنا فقد كانت المدرسة الرياضية وأن نصير أبطالاً رياضيين تعني أننا سوف نشارك في منافسات دولية، وسنسافر للخارج لنحصل يوماً ما على ميدالية أوليمبية، وسنسكن لمدة ثمانية أعوام في المدرسة الداخلية، وسنسافر لأسرنا فقط في نهاية الاسبوع، وأننا سنحصل على مصروف جيب و ستفخر الدولة بأكملها بنا وبإنجازاتنا وستتكفل بعد الاحتراف الرياضي بإيجاد وظيفة مناسبة ذات دخل عالٍ لنا جميعاً.

كان مستواي في ألعاب القوى متوسطاً، ولكنني كنت من بين أفضل من يمارسون الجمباز على الأجهزة، وكنت ممن لا يمكن هزيمتهم في رياضة المصارعة، إذ كنت الأول دائماً في كل مباراة، ولم يستطع أحد أن يطرحني أرضاً. وأبقاني مدربي السيد شتيسلر ليومين لوقت أطول في صالة الألعاب لكي يبيّن لي، لي وحدي، بعض حركات الإمساك بالخصم والتي أطلق عليها حركات شل قدرات الخصم، كما بيّن لي بعض التقنيات الأساسية غير العادية والتي يسمح بها ولا تستوجب العقوبة. وفي اليوم قبل الأخير من الاختبار قال لي، بأنه لن يتمكن من القيام بتدريبي يوم السبت لأنه سيسافر في نهاية الاسبوع لإحدى المسابقات الرياضية، إلا أنه متأكد من

أننا سوف نرى بعضنا البعض مرة أخرى. ثم مد إليّ يده لوداعي وربت على كتفي معربًا عن اعترافه بقدراتي. مر على ذلك بضع ساعات، ليظهر في مساء يوم الجمعة ذاك، بشكل مفاجيء في المدرسة الداخلية. كنا نتناول وقتها طعام العشاء في صالة الطعام حين نادى علي للخروج إليه. فذهبت معه إلى قاعة الاستقبال الكبرى والتي كانت فارغة من الطلاب في هذا الوقت.

نظر إليّ المدرب متحسرًا وقال: وآسفاه يا كونستانتين ، إنها خسارة كبيرة. إن لديك المهارات اللازمة لتصير بطلًا رياضيًا في ألعاب القوى، ولكن لن يكون هناك شيء بيننا.

نظرت إليه في حيرة ولم أدر ماذا أقول. إلا أنني بدأت بعدها في التحدث وأنا أتلعثم قائلاً بأنني فزت في جميع المبارايات، وسألته لماذا لم يعد يريد القيام بتدريبي فجأة هكذا.

- كنت أود أن أقوم بتدريبك يا بني، صدقني. ولكن هذا غير ممكن، وأعتقد أنك تعرف السبب.

فهززت رأسي بعنف نافيًا ذلك.

فسألني: ما هي قصة والدك؟

- ماذا هنالك؟ لقد مات منذ فترة طويلة جدًا. وقد سقط في الحرب قتيلًا ولم أره قط.

- سقط في الحرب؟ من قال هذا؟

- أعرف ذلك من والدتي.

- آه، هكذا هو الأمر إذًا. إنها والدتك التي حكت لك ذلك. إذًا، فإنه يجدر بك أن تتحدث مع والدتك في هذا الأمر. وقل لها إننا بحاجة لفتيان وفتيات ليسوا فقط من الرياضيين الجيدين، بل لمن باستطاعتهم إن يمثّلوا بلدنا في الخارج. فنحن نقوم بتدريب سفراء لبلدنا يرتدون بدلة التدريب. أتفهمني؟ أما عن الباقي، فاجعل والدتك تحكي لك عنه. يمكنك المشاركة غدًا لمرة أخرى في التدريب. وفي المساء ستسافر بالحافلة لمنزلك. ولا تقطع صلتك برياضة المصارعة يا بني، حتى وإن لم تصبح أحد رياضينا ذوي الإنجازات. فكر بالأمر، فالرياضة مهمة لحياتك المستقبلية.

ربت على كتفي مرة أخرى ثم انصرف خارجًا من المدرسة الداخلية. عدت أنا إلى صالة الطعام وأحضرت لي طبقًا به طعام غير مطبوخ وحاولت أن آكل، ولكنني لم أكن جائعًا فأعدت الطبق إلى مكانه.

سألني ماكس، الذي كان يمارس رياضة المصارعة أيضًا وكان ماهرًا جدًا فيها، وقد كنا أصدقاء: هل قال لك السيد شتيسلر أنه سيتم قبولك؟

فأجبته قائلًا: لا، ولا أعتقد أنني نجحت في ذلك.

فقال: يمكنك أن تكون متأكدًا من قبولك. هل نتراهن على ذلك؟ أنا متأكد من أنه إذا ما قرر المسئولون هنا بأخذ واحدٍ فقط يا كونستنتين فإنك ستكون هذا الشخص.

- لا أعتقد ذلك. أراهن على أنهم سيأخذونك أنت.

عندما عدت إلى البيت قصصت على أمي كل شيء، إلا أنها لم تحكِ لي أكثر من أن الوالد كان ضابطًا ذا مكانة عند النازيين، وأن هذا الأمر لم يعد أحد يقدره في الوقت الحالي. وقالت، إن أبناء الضباط التابعين لقوات دفاع ألمانيا النازية لا يسمح لهم بالتقدم للثانوية العامة، وأنها كانت تتوقع أنني لن أقبل في المدرسة الرياضية. ولكن علي أن أكون سعيدًا، لأن العيش في المدرسة الداخلية قد يكون مسليًا لمدة أسبوع واحد، ولكن الإقامة في بيت الطلبة على الدوام لا يعني إلا الشعور بالوحدة، وهو شعور قسوته داخل هذا المكان تفوق أي مكان آخر. وقالت إنها مرّت بذلك الشعور عندما كان عمرها اثنتي عشرة سنة. فحينها دخلت ولمدة أربع سنوات مدرسة داخلية مخصصة للبنات في سويسرا، وهي لا تتمنى لأيٍ كان مثل هذا الأمر. صدقتها آنذاك وارتضيت بالأمر. ولكنني في ذات الوقت لم أصدقها، ومع هذا لم أرد الاسترسال في السؤال وتبيّن الأمر. فقد تمنيت أن يكون هذه الشؤم كمثل سحابة سوداء ستنقشع يومًا ما وتختفي، وألا تتعقبني وتخيفني وتدمر كل شيء كنت أتمناه لنفسي.

لكنني وأنا جالس على مرحاض المدرسة بمفردي، أدركت أن هذه الحادثة المروعة لها علاقة بوالدي. وأن أبي هو النحس الذي سيصاحب حياتي، وسيظل كالقطران ملتصقًا بي ما حييت.

وعندما عدت وقتها لحجرة الدرس نظرت إليّ المدرسة نظرة متسائلة، وسألتني إذا ما كنت بخير، فأومأت بالإيجاب. كان الفصل بأكمله ينظر باتجاهي في هذه اللحظة. كم كنت أود أن أصرخ فيهم قائلاً: نعم، أعلم ما تفكرون فيه. وأعرف لماذا تشخصون بأبصاركم هكذا تجاهي. نعم، أنا ابن مجرم حرب، ابن مجرم قد تم إعدامه. نعم، والدي كان أحد ضباط الوحدة الوقائية SS النازية الخطيرين.

ولكنني بدلاً من أن أصرخ في الفصل بأكمله وفي وجه المُدَرسة، ذهبت لمكاني في الفصل وجلست مطأطِئًا رأسي وودت لو أختبئ من العالم كله. كنت أريد أن أختبيء وأختفي. أن أختبيء في جحر فأر. أن أستتر وأحتجب. أن أتلاشى.

لم أتحدث أنا وجونتهارد لأسبوع كامل مع بعضنا البعض. لم نتحدث في وجود والدتنا، ولم نتحدث أيضًا ونحن جالسين في غرفتنا المشتركة. وكانت أمنا فقط هي التي تتحدث عندما نجتمع على الطاولة للطعام، وكنا نجيبها بكلمات مقتضبة وقصيرة. وبذلت أمي قصارى جهدها للتغيير من مزاجنا المظلم والمكتئب، ولكنني أعتقد أنها كانت تعرف سر صمتنا.

بعد إسبوع من مصارحة والدتي لنا قال لي جونتهارد بشكل عرضي وهو يعبئ حقيبته المدرسية: لا يجب أن تصدق كل شيء تقوله والدتنا عن والدنا، فزواج والدينا لم يكن موفقًا قط.

صفحات 285-289

كان موعدي الأول في الساعة التاسعة من صباح اليوم الذي تلى وصولي. وكان يجلس في الغرفة المذكورة في الورقة الصغيرة التي أحملها رجل يقرأ في ملف، أشار لي بحركة من يده ودون ان يرفع نظره إليّ بالجلوس. على أغلب الظن كان يبلغ من العمر أربعين سنة، ولكنه كان ذا شعر أبيض تمامًا، وتدمع عينه اليمنى بشكل متكرر فيجففها باستمرار بمنديل. وعندما رفع عينه أخيرًا عن الملف سألني: „بوجوش؟“

- نعم، أنا كونستانتين بوجوش.

- وأنا المكلف بمراجعة وإتمام الوثائق والأوراق التابعة لقسم الشئون الداخلية، وعليك أن تحكي لي الآن عن بعض الأمور.

بدأ ينقر بأصابعه على الملف السميك، والتي من المفترض أنها تحتوي على كل شيء عني، وبها محاضر مدونة عن كل لقاءاتي ومحادثاتي، ومستندات بها معلومات عني، ربما لا أعرف حتى أنا شيئًا عنها. وقال إنه يود لو استطاع أن يثق بي، ولذلك علي أن أحكي له بصراحة ووضوح عن هرويي قبل عامين وأن أخبره بكل دقة عن كل الأماكن التي ذهبت إليها، وأين سكنت، وكيف كنت أدبر معيشتي، ومن قابلت في تلك الفترة.

وواصل كلامه قائلًا: إن كل شيء مدون بالفعل في هذا الملف، ولكنني أريد أن أسمع منك.

أومأت برأسي، وأعطيته إجابة على كل معلومة طلبت مني. إلا أنه أغلق الملف بعد ساعة، لأنني لم أقل له ما يهتم هو بسماعه، وحملق في صامتًا لمدة طويلة.

ثم قال أخيرًا: إنك فتى ذكي جدًا، أليس كذلك، وبكل تأكيد تعرف جيدًا معنى الاختصارات. فعندما أقول على سبيل المثال اختصارات مثل CIAأو SDECEأو BNDفأنت تعرف عما أتحدث.

- فرددت قائلاً: أعرفها بالتقريب، أعتقد أنها اختصارات لأجهزة مخابرات.

- صحيح تمامًا، والآن قل لي مع أي من هذه المراكز المخابراتية الثلاثة تحدثت؟ من تكلم معك؟ وما هي المهام التي كلفت بها؟ وما الذي وعدوك به؟ أريد أن أسمع منك ما أعرفه بالفعل، لأنه مكتوب هنا

ضرب بكفه عدة مرات على ذلك الملف المغلق المكتظ بالأوراق وقال، بما أنه من الواضح أني لا أريد أن أفصح له عن شيئ، فإنه سوف ينهي حديثنا لليوم مبدئيًا ليمنحني وقتًا للإمعان في التفكير، لتحسين وضعي بشيء أكثر من الأمانة والوضوح.

- يمكنك أن تتصرف، ولكننا سنلتقي مجددًا. عندي من الوقت الكثير، يا فتى.

في اليوم الثاني مباشرة كانوا قد استكملوا ملفاتهم وعرفوا تفصيلًا من يكون والدي.

نعم. قالها ذلك الرجل الكبير الذي قدم نفسه على أنه المكلف بمراجعة وإتمام الوثائق والأوراق التابعة لقسم الشئون الداخلية: نعم. بالطبع. كان والدك صاحب مصنع فولكانو (للمطاط، الذي كان يعمل بنظام السخرة مخضعًا سجناء معسكر الاعتقال أوشـڤيتس - مونوڤيتس للعمل فيه تحت ظروف قاسية). أنا أعرف ذلك. ولكننا نعرف أكثر من ذلك بكثير عن والدك. ألا تريد أن تتحدث عن ذلك يا بوجوش؟ ولماذا تحمل اسم بوجوش من الأساس؟ أليس اسم عائلتك الصحيح هو مولر. ووالدك هو جرهارد مولر.

- بعد الحرب استعادت أمي اسم عائلتها قبل الزواج، وأنا وأخي حصلنا بالتبعية على هذا الاسم. فأمي أرادت أن تقطع كل صلة تربطها بزوجها السابق.

- لديها منه طفلان. أعتقد أنه من الصعب القول بأنها قطعت كل صلة تصلها به. ألا تريد أن تحكي لي شيئًا عنه، أقصد عن والدك؟

- إنه ميت.

- نعم، حُكِم عليه بالموت وتم إعدامه. ما حكمك أنت على ذلك؟ هل ترى أن الحكم عليه بالموت والإعدام شنقًا حكمٌ عادلٌ؟

نظرت إليه ولذت بالصمت. فنهض ودار حول المكتب وهو يعرج، ساحبًا ساقه اليمنى بعد اليسرى.

مولر، قالها عندما كان يقف خلفي، جرهارت مولر، واحد من أفظع مجرمي الحرب، كان وحشًا. وأنت تقص علي أنك لم تلتحق بالمدرسة الثانوية لأن والدك كان يمتلك مصنعًا قبل الحرب. لا ، يا بوجوش. لأن والدك تمت إدانته كمجرم حرب لذلك لم يُردْكَ أحد. والآن مرة ثانية، يا بوجوش، قل لي: هل كان الحكم على والدك بالموت والإعدام شنقًا حكمًا عادلاً؟ ما رأيك في ذلك؟

- إن الرجل الذي كان والدي حُكِم عليه بالموت قبل ولادتي بثلاثة أشهر. ولم أره قط وليست لي أي علاقة به. وكل ما أعرفه عنه علمته من أمي ومن الناس من حولنا، وأعتقد بعد كل ما حكوه لي أن الحكم عليه بالموت يعد حكمًا مستحقًا.

- أترى، أخيرًا تقدمنا خطوة للأمام. والآن قل لنا لماذا هربت قبل عامين؟ ومع من تقابلت في فرنسا؟ هل مع أصدقاء والدك القدامى؟ مع نازيين مختفيين؟

ثم عاد مرة أخرى إلى مقعده خلف المكتب وهو يعرج وجفف عينه وحملق في ساخرًا.

- لقد قلت لك كل شيء. كنت أعمل في مرسيليا لحساب أربع محاربين من مناضلي المقاومة، كانوا قد احتُجِزوا في معسكرات الاعتقال الألمانية. هؤلاء الناس ليسوا نازيين، بل هم عكس ذلك تمامًا. وعندما عدت إلى هنا تمت مصادرة كتابي „مصارعة الديكة - 22 يونيو“، والذي ذكرت فيه أسماءهم، وهم إيمانويل دوبريه ومكسيم ليبريتر وماتّيو نيكولاس وجَبْريل جاسنر. كل هؤلاء مذكورون في الكتاب. لقد كانوا جميعًا في حركات المقاومة وكانوا يناضلون ضد النازيين. لقد كانوا ضد أناس مثل جرهارد مولر، والذي توجد له صورة في هذا الكتاب، وأسميته في الكتاب“بركان".

- أتريدني أن أصدق، أن هؤلاء الناس من المقاومة وافقوا بكل أريحية على أن يكون ابن رجل من وحدة الوقاية النازي هو المترجم، الذي يعمل لحسابهم؟ أنهم اختاروا دونًا عن الكل ابن لأحد أبشع مجرمي النازية؟

- نعم. لأن ليس لي أية علاقة به. لأنني لا أعرفه. لأنني لم أره قط.

- لا تصيح هنا هكذا يا فتى! إنك لا تحسن من وضعك بهذا الصياح.

لم أكن أصيح، ولكن ربما ارتفع صوتي في هذه اللحظة. فقد أصبت اليأس، لأنني وجدت أمامي من جديد والدي المخيف، والدي المكروه، الذي يحطم كل شيء كنت أحاول أن أبنيه لنفسي.

- سامحني، إنني أعرف أن والدي كان مجرم حرب، أعرف ذلك، ويضايقني هذا بشدة. ولكن ماذا عساي أن أفعل؟ قل لي من فضلك. لا يربطني بهذا الرجل أي شيء ولم أره قط. حتى

أمي خلعت اسمه عن نفسها، وفعلت كل ما بوسعها لكي لا نضطر أن نحمل أنا وأخي هذا الاسم. ولكن ومنذ فترة الدراسة بالمدرسة فإنه يتم مواجهتي بوالدي هذا. ولكنني شخص آخر. أنا كونستنتين بوجوش. لماذا ينبغي أن أكون باستمرار ابنًا لهذا المدعو جرهارد مولر. أنا لست هذا الشخص. هذا الرجل قد تم إعدامه، ونفذ فيه حكم الشنق المستحق، ولكن أنا اسمي بوجوش، كونستنتين بوجوش. وليس لي أية علاقة به.

- ولكن يا فتى، إن كل ما قلته ليس صحيحًا تمامًا...

- لقد قلت لك الحقيقة كاملة. لقد كنت أود أن أحصل على شهادة الثانوية العامة، ولهذا السبب وحده غادرت هاربًا. وغادرت أيضًا لأنني لم أكن أرغب في أن يتم الربط باستمرار بيني وبين هذا الرجل المدعو مولر الذي كان يعمل لحساب وحدة الوقاية النازية. وتخيلت أنني قد أستطيع أن أكون نفسي في بلد آخر، في بلد، لم يسمع عنه أحدًا شيئًا على الإطلاق، وأنه سيكون عندي الفرصة لكي أكون أنا وفقط، وليس كالعادة دائمًا ابنًا لأحد المجرمين.

أطال النظر إلي، ولكنه لم يرد بشيء، بل انحنى على الملف الخاص بي وبدأ يكتب. كان يكتب ببطء، وبدا أنه كان يجد صعوبة ما في إيجاد الصياغة المناسبة. وبعد فترة من الوقت توقف عن الكتابة ورفع بصره عن الملف ناظرًا إلي.

- يمكنك أن تذهب الآن يا بوجوش. ليس لدي الآن أية أسئلة، ولكن هذا لا يعني أن الأمر قد انتهى بيننا على هذا. لم ننتهِ قط، يا بوجوش.

ذهبت إلى غرفتي واستلقيت على السرير. كان من المفترض أن أذهب للعمل في الحديقة بعد هذا الاستجواب، ولكنني كنت بحاجة لأن أستريح ولو لفترة قصيرة. فلمرة أخرى اصطدم بوالدي، الذي عاد ليظهر من جديد ولكي يستعيدني إبنًا له: ابنًا لأحد مقاتلي الوقاية النازية، ابنًا لمجرم حرب، ابنًا لشخص حُكِم عليه بالإعدام. لقد هربت من بيتي وتركت ألمانيا وتواريت عن الأنظار في مرسيليا، ولكن كل هذا لم يشفع لي، فقد كنت أصطدم به في كل مكان. وبعد عدة أيام من عودتي أو من عودتي الإجبارية، حتى لا أكون ابنًا "للبركان "بالنسبة لإمانويل، ظهر لي من جديد، لكي يتحكم في مصيري.

كانت هناك نقاشات أو بالأحرى استجوابات يومية. وكان علي الظهور على الأقل لمرتين في اليوم لمدة نصف ساعة، أو حتى عشر دقائق، لكي أجلس في إحدى الحجرات وأجيب على أية أسئلة تخطر ببالهم. بعد ثلاثة أيام كانت كل الأسئلة التي توجه لي مكررة، وكنت أحكي للجميع باستمرار وبلا كلل أو ملل نفس القصة، وأنني لم أهرب، ولكنني فقط سافرت إلى فرنسا لتحسين لغتي الفرنسية ولكي أحصل على شهادة الثانوية العامة، التي لم تسمح لي بلادي بها، لأن والدي كان يمتلك مصنعًا آنذاك.